مقدمة الجامع

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد فإن الشعر العربي النسائي مهضوم الحق، مهيض الجناح قديمًا وحديثًا، فما تكاد ترى ديوانًا لشاعرة، أو مجموعة لنابغة، أهمل ذلك الأولون، ومضى على آثارهم المتأخرون، فأنت إذا تصفحت مختارات الشعراء كحماسة أبي تمام والبحتري وغيرهما من الأقدمين، أو مختارات البارودي وأمثاله من المتأخرين لا تجد فيها شعرًا نسائيًا إلا ما ندر كأن الدهر قد حكم على المرأة بالظلم في كل شيء حتى في الأدب والشعر، وما أدري إن كان ذلك من الأولين تعمدًا أم كان منهم إهمالًا ونسيانًا، أم أنهم ما كانوا ينظرون إلى أشعارهنَّ بعين الإعجاب، أم أن في ذلك ما يفسر بروح الحشمة، وعدم تبذل المرأة حتى في نشر أدبها وبيان شعورها، والمرأة بلا ريب أرق عاطفة وشعورًا من الرجل، ولكنه هو أوفر علمًا، بما يتاح له من الوقت والوسائل للتوفر على التعلم والمزيد من الرقي.

وهي بلا ريب تقدر على بيان ما يخطر في أفكارها من معان، وما يجول في دماغها من نظريات، وما تضطرب به روحها من حالات نفسانية، ولكنَّ الرجل يملك من حرية القول والعمل، ما لا تملكه هي فهو أجرأ على إظهار أفكاره الغرامية، وعلى الجهر بالغزل والتشبيب، ووصف حالات الغرام من هجر ووصال وعفة وفجور.

فالمرأة في الأصل لا تقل عن الرجل كفاءةً للعمل والظهور في كل الميادين التي ظهر فيها، ولكن الوسائل أظهرته، وفقدانها عند المرأة حجبها، فجعلها مجهولة لولا

بعض أفراد من علمائنا الأُوَل، حفظوا لها ولنا بعض هذا الشعر (لأنني أعتقد أنَّ كثيرًا منه قد فقد بدافع تلك الأسباب التي قدمتها).

وكذلك نرى في عصرنا هذا من يهتم بالمرأة فيحفظ لها ما تلقيه من أدب وشعر على الناس، يساعده على ذلك انتشار الجرائد والمجلات العلمية، وتشجيع أربابها للمرأة، في إظهار فضائلها ونشر أفكارها فلأولئك العلماء ولهؤلاء المعاصرين الفضل الكبير في كشف هذه الناحية المهمة من نواحي أدبنا العربي وهي الناحية النسائية، فلهم شكر الأدب والأدباء والعرب والعربية على هذه المنة النافعة، والفائدة السامية.

هذه الناحية أحببت أن أقوم بما يجب لها من الاهتمام، فأجمع ما تفرق وأضمه في كتاب أنشره خدمة للأدب العربي عامة، والنسائي منه خاصة؛ فبحثت عنه في الكتب (التي ترى أسماءها في آخر الكتاب).

وجمعت ما عثرت عليه من الشعر النسائي في هذا الديوان الذي سميته «شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام» ورتبته على شكل فصلتُ فيه الشعر الجاهلي عن الشعر الإسلامي، وقدمت فيه من قدم زمانها على من تأخر، في شبه سلسلة تاريخية ينتقل بها القارئ من عصر الجاهلية الأولى إلى عصر البعثة النبوية، فجعلت ما قيل فيها آخر الشعر الجاهلي.

وبدأت في الشعر الإسلامي بشعر ليلى الأَخيلية لأنها أشهر شاعرات الإسلام وأكثرهنَّ شعرًا، ثم أتبعتها بشاعرات العصر الأموي في الشرق والأندلس، ثم بشعر العصر العباسي وما يليه، خاتمًا بشعر تقية الصورية من نساء العصر الهجري السادس.

أما شاعرات العصر الأخير فلم أتعرض لهنَّ؛ لأنَّ أكثرهنَّ قد طبع شعرهنَّ إمَّا في ديوان وإما في الصحف والمجلات وهو متداول معروف، وأنا إنما قصدت إلى نشر الشعر النسائي المتفرق المجهول، وكذلك لم أنشر للحنساء لأن ديوانها مطبوع.

وقد يبلغ عدد النساء اللواتي تقرأ شعرهنَّ هنا المئات، ولكن ما وجد لهنَّ من الشعر قليل بالنسبة للعدد، أو هو لا يكاد يوازي شعر شاعر واحد من الشعراء المكثرين.

على أن في هذا الشعر النسائي كل أبواب الشعر المعروفة في ذلك الزمن: فالمدح، والرثاء، والهجاء، والغزل، والحكمة، والنصيحة، وإثارة الحماس، والوصف الطبيعي، وأحيانًا الغزلي، وفيه التحزب السياسي، والقومي والجنسي.

ومنهنَّ مَن امتزن بجودة الشعر ومسايرة كبار الشعراء في المتانة وصحة اللغة، كليلى الأخيلية وبنت طريف، والفارعة، وبنات الخس، وأُم الضحاك مما ستراه مُدَوَّنًا في هذه المجموعة.

إلا أنني ألفت نظر القارئ إلى بعض هؤلاء الشاعرات، وبعض ما قلن من سامي الشعر، وبارع النظم.

فهذه «أُمُّ الضحاك المحاربية» استمع إليها تقول:

شفاءُ الحب..... إلخ

فهي تصور لك صورة للحب لا يكاد يجرأ على الجهر بها حتى الرجال، فضلًا عن الحكم على الحب حكمًا ماديًا لا يستسيغه (عشاق) الخيال ومغرمو الهواء...

وهنالك أختان هما: جمعة وهند بنتا الخُس، فاقرأ شعرهما وتأمل ما فيه من الحكم التي تضاهي ما أتى به حكماء وفلاسفة العالم وهما في تلك البادية الجرداء، ولكنهما قد اكتسبا من بداوتهما ما هو زبدة الحكمة في الحياة الحضرية والبدوية الكاملة.

وهذه الخرنق، أخت طرفة بن العبد الشاعر العظيم، تقرأ شعرها فتجد منه ما يساير شعر أخيها في طبقته من البلاغة والجزالة.

وكم ترى من نساء لا يحمدون عِشرة أزواجهنَّ، خاصة إذا كنَّ شيوخًا... فما تجد أبلغ من قول زوجة أبي العاج الكلبي

شنئت الشيوخَ وأبغضتهم..... إلخ

فهي تجهر بالحقيقة التي يعمى عنها هؤلاء الشيوخ فيتزوجون الشابات، ثم تكون تلك الزيجة عليهم أسوأ الزيجات...

وهل ترى في الإشفاق وتمثيل أثر الفقر والجوع في النفس أبلغ من قول غنية بنت عفيف «أُم حاتم الطائي»؟ التي عضَّها الجوع فآلت على نفسها ألا تمنع جائعًا، وعنها أخذ حاتمُ إرث الكرم الذي اشتهر به حتى صار مثلًا.

ثم إنك لترى في قصة (عبلة بنت خالد التميمية) وما قالته من الشعر، ما لا تجد له مثيلًا إلا عند مشهوري العشاق الفتاك كأبي نواس وبشَّار وأمثالهما.

وتلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب، تعير أخاها لقعوده عن أخذ الثأر بما لا يقل تأثيرًا عن شعر القائل:

«لو كنتُ من مازن» الواردة في أشعار الحماسة.

وعشرقة المحاربية، التي تذكر -وقد هرمت- ما كان منها في صباها، وتتهكم على الناس وتتهمهم بأنهم لا يعرفون الحب إلا ما تركته هي لهم من بقية...

ثم أنت إذا قرأت مرثية امرأة إعرابية في ابنها عمرو (يا عمرو ما لي عنك من صبر) قرأت ما لا يمكن لغير المرأة أن تصفه وتتحسس به من الثكل، والحنو على الولد ومداراته، والبكاء عليه، مما يفتت القلوب الحساسة، ولا يقدر على مثله الرجال.

وتلك فاطمة بنت مُر؛ عاشقة عبد الله والد الرسول، مَنَّت نفسها بالزواج منه؛ لشيءٍ لمحته على جبينه أملت من ورائه خيرًا، ولكنها فشلت «وكان هذا الخير من نصيب السيدة آمنة بنت وهب الزهرية؛ أُم النبيِّ عليه السلام» فقالت في ذلك شعرًا رصينًا بليغًا، تأسف فيه على ما أفلت من يدها في قالب شعري مؤثر يلعب باللُّب.

وهناك قُتيلة بنت النضر بن الحرث، تقرأ شعرها في رثاء أبيها واستعطاف الرسول عليه السلام، فيكاد يذهب بك التصور إلى أنك تشهدها وهي تنشد ذلك الشعر البليغ المؤثر «لله أرحامٌ هناك تمرَّقُ» هذا شعر ما رأيت أشد منه تأثيرًا على النفس، حتى قال الرسول عليه السلام أنه لو سمعه قبل قتل أخيها لعفا عنه.

أمَّا ليلى الأخيلية فيكفي ما أوردناه من سيرتها وما طار من شهرتها عن المزيد من الشرح والبيان.

وتلك ليلى بنت طريف، على أننا لم نر لها غير قصيدة فذة وبضعة أبيات؛ ولكنها فاقت على كثير من فحول الشعر في تلك القصيدة، فهي في المتانة كأنها شعر الفرزدق، وفي الرقة كأنها حنين الخنساء، ولين جرير وسلاسته.

فيا شجر الخابور ما لك مورقًا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف؟؟

هذا بديع حقًّا، مؤثر، يعبر عن عاطفة حنان تحس أن كل شيء يجب أن يبكي معها...

ولطيفة الحدانية: تلك التي يبلغ بها الأسى الصحيح على زوجها، أن كانت تزوره في خير زي لها من حُلي وحلل، وتقول له في شعرها أنها تزوره في الهيئات التي تعرف أنه كان يُسرُّ بها في حياته، وذلك في نظم مؤثر على النفس محزن للغاية.

وكنز أم شملة المنقري، ألا ترى أنها تقول شعرًا نُسب إلى ذي الرمة فبرئ منه وحلف (صادقًا) أنه ليس له، وهذا الشعر متين اختلط على الناس في ذلك الزمن نسبته حتى اتهموا به ذا الرمة؛ وكان من ذلك أن غضبت عليه مي، والحقيقة أنه لهذه النمامة الشاعرة.

وحميدة بنت النعمان (يظهر أنها مل توفق بزوج ترضاه، وهي ترى أنها تستحق أحسن الأزواج) ففاضت نفسها بهجاء الرجال والأزواج هجاءً يجمع أطراف السيئات والقباحات تلصقها بهم من كل جانب.

وهناك شاعرات فاضت عواطفهن فسالت كلامًا بديعًا سائغًا، وخاصة ما كان منه في الرثاء، (وهؤلاء كثيرات) ولا أُبالغ إذا قلت أن أكثر الشعر النسائي هو في الرثاء، ولا غرو فالحزن ينبعث عن النفوس الحساسة ولا جدال بأنَّ المراة أقوى إحساسًا وأشد عاطفة وشعورًا.

ومنهنَّ أُمُّ حكيم جويرية، وأم عقبة، وأم خالد النميرية، وتلك الأعرابية التي ترثي ولدها بقولها: «ختلته المنون بعد اختيالِ»... وغيرهنَّ من أمثالهنَّ ستجد لهنَّ البدائع في الرثاء.

ومنهنَّ أنصار الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهؤلاء شاعرات السياسة، فتأمل ما يقلنه في نُصرته عليه السلام في حياته وبعد مماته، تجد عجبًا وتهتز طربًا، بتلك العواطف وذلك الحب البريء الخالي من الكلفة والتصنع، أضف إليه أنهنَّ كنَّ يرثين أزواجًا أو أبناء لهنَّ كانوا قتلوا في حروبهم مع الإمام، فتجد أن نصرتهنَّ للإمام، كانت تغلب على رثائهنَّ وحزنهنَّ على مفقوديهن.

وامرأة أبي حمزة الضبي: أرأيت أجمل من قولها تقريعًا للرجال الذين يغضبون من ولادة البنات، «وإنما نأخذُ ما أُعطينا»؟؟

وبنت أسلم البكري، التي تؤثر بشعرها على الحجاج (وهو من علمت في شدته وصلابته) حتى رقَّ لها وعفا عن أبيها...

وعُليَّة بنت المهدي، كانت من ظريفات الدهرِ ذكاءً وجمالًا وغناءً وشعرًا، وفيها مجانة وحرية متطرفة؛ في القول، على عفاف وشرف مقام، ومن غريب أمرها أنها كانت تنظم الغزل نسائيًّا؛ أي أنها كانت تتغزل باسم امرأة قيل: إنها تذكره وتكني به عن حبيبها ليبقى مجهولًا، وقد ينصرف الذهن على كثرة ما يُرى من هذا الغزل النسائي أنها تتغزل بامرأة على الحقيقة.

واقرأ قولها: «إذا لم يكن في الحبِ سخطٌ ولا رضى، فأين حلاوات الرسائل والكتب» فهو من أجمل ما قيل في الحب.

ومحبوبة جارية المتوكل، لها شعر بديع، ولها رثاء في سيدها جعفر من أروع ما قيل، ومن أقوى الأدلة على الوفاء في النساء.

هؤلاء وأمثالهنَّ كزينب بنت الطثرية، وحسانة التميمية، وحمدونة بنت زياد الأندلسية، وحفصة الركونية، وقمر، ونزهون الغرناطية، وولادة، ودنانير، وعريب، وعنان، وفضل، هنَّ من المتقدمات في الشعر البالغات فيه طبقة عالية، ومحاسنهنَّ كثيرة، لا يتسع المجال لايفائها حقها من القول والثناء.

وبعض من هؤلاء لم أذكر أسمائهنَّ لكثرتهنَّ؛ فقد تفننَّ في القول ونظمن في كل مجال من ميادين الشعر الرائق، تجد ما جُدْنَ به على العربية مفصلًا في هذه المجموعة التي أود أن أكون خدمت بنشرها الأدب العربي في ناحية من أهم نواحيه، وجمعت من شعرهنَّ ما أمكن، فليس لي من فضل في هذا إلا أني رفعت عن الطالب ثقل البحث والتنقيب وقدمتها إليه في هذه الوريقات سائغة هينة، والله الموفق:

بيروت ١٣٥٣ هجرية/ ١٩٣٤ ميلادية

بشير يموت